اللغةُ العربيَّةُ مُتَطَلَّباً جامعيّاً

الأستاذ الدكتور محمد عصفور

جامعة فيلادلفيا

الأربعاء ٩ تشرين الثاني ٢٠١٦م

الملخَّص

يسعى هذا البحث إلى النظر في مسوِّغات جعل اللغة العربية متطلَّباً جامعيّاً إجباريّاً بمقارنة وضعه بوضع اللغة الإنكليزية في بعض الجامعات الأمريكيـــة، حيث تُعامَل تلك اللغة على أنها متطلَّبٌ إجباريٌّ لكلِّ الطلبة الجدد لأن المطلوب منهم في جميع الأقسام أن يكتبوا بحوثاً جادّة وفق متطلّبـــات البحـــث العلمـــي الجامعي، وعدم الاكتفاء بموضوعات الإنشاء القصيرة التي يجري التركيز فيها على موضوعات النحو والصرف والإملاء. ويربط البحثُ بين مقدار ما يتعلَّمه الطالب من اللغة وبين حاجته منها، ويبيِّن أن الإصرار على تعليم العلوم الحديثة باللغة الأجنبية ليس سوى مظهر من مظاهر الاستهانة باللغة العربية، الفاشـــية هذه الأيام في كثيرٍ من نواحي حياتنا الثقافية، وأن الحاجة ماسَّةٌ إلـــى تطـــوير تدريس اللغة العربية وليس إلى التقليل من شأنها.

لا شكَّ في أنكم سمعتم معالي وزير التربية والتعليم فـــي الأردن مـــؤخَّراً وهو يشكو من أن ما يزيد على مائة وثلاثين ألفاً من طلبة المدارس التي تشرف الوزارة على التعليم فيها لا يعرفون الكتابة والقراءة.(١) ومع أن درجة معرفـــة

---

(١) http://www.sarayanews.com/index.php?page=article&id=390859

ورد في موقعٍ آخر خبر عن كتابٍ وضعه مدرس في جامعة مؤتة يحتوي صوراً ينقصها الذوق. ونقل الموقع عن أحد المسؤولين في الجامعة "**شديد اعتذاره للطلبة باسم الجامعة، وأشار "نحن لسنا مضطرين بدراسة هكذا مواضيع"، بحيث تمت المشاورات والتواصـــل على أعلى المستويات، كما سيتم اتخاذ الإجراءات اللازمة بحق المدرس.**" ولا شكَّ فـــي أن المسؤول لم ينطق بهذه الكلمات التي أوردها الموقع وأن صياغة فحوى كلامه هي من مسؤولية الصحيفة. لكنني نقلت هذا الكلام للتدليل على أن حال اللغة العربية في الصحف ليســـت أفضـــل حـــالاً مـــن حالهـــا فـــي المـــدارس الحكوميـــة. انظـــر http://www.sarayanews.com/index.php?page=article&id=391762

الطلبة بهاتين المهارتين تتفاوت تفاوتاً كبيراً بحيث يصعب القبول بهذا التعميم دون بيانات وإحصاءات تحوِّل الكلام السياسي إلى أرقام، فإن كلام الوزير يدقُّ ناقوس الخطر. وصدور هذا الكلام عن أعلى مرجع في الدولة وزارتُه مسؤولةٌ مسؤوليةً مباشرةً عن درجة إتقان تلاميذها لهاتين المهارتين يعني أن المسؤول لديه الجُرأة على الاعتراف بتقصير الوزارة والرغبة في معالجة الخلل. ولستُ أريد الاسترسال في هذا الموضوع الخطير لأنه يقع خارج الموضوع الذي أُسنِدت إليّ مَهَمَّةُ الحديث فيه. إنما أريد أن أشير إلى أن الجامعات الأردنية تستقبل جزءاً لا بأس به من هذه الآلاف التي تخرِّجها وزارة التربية والتعليم سنويّاً، وأن هذه الجامعات قرَّرت أن تضع في خططها الجامعية متطلَّباً جامعيّاً في اللغة العربية.

أبدأ الكلام في الموضوع بطرح عدد من الأسئلة:

(١) هل هنالك حاجة لفرض هذا المتطلَّب؟

(٢) هل يمكن لمادَّةٍ تُدرَّس على مدى ستَّةَ عَشَرَ أسبوعاً أن تعالج خَلَلاً عُمُرُهُ اثنتا عشرةَ سنةً وتأصَّلت فيه عاداتٌ في المهارات الأربع أدّت إلى ما يشكو منه وزير التربية والتعليم مركِّزاً على اثنتين منها فقط؟

(٣) ما هي ضرورةُ مادَّةٍ تعليمية لا تُستَعمل في تدريس العلوم الطبيعية أو دراستها؟

يتناول السؤال الأوَّل الحاجة لفرض اللغة العربية متطلَّباً جامعيّاً. وأبدأ الجواب بالتعليق على هذه العبارة القلقة: "المتطلَّب الجامعي"، التي لم نسمع بها قبل انتقال الجامعة الأردنية من النظام السنوي إلى نظام الساعات المعتمدة في أوائل السبعينات من القرن الماضي. وأودّ التذكير بأن الجامعة الأردنية كانت

هي الجامعة التي أدخلت هذا النظام الأمريكي إلى التعليم في الأردن، ومنه إلى أجزاءٍ أخرى من العالم العربي. أنا شخصيّاً درستُ المرحلة الجامعية الأولى في جامعة بغداد، وكانت الخُطَّة الدراسية في قسم اللغة الإنكليزية في كلِّيـــة الآداب فيها تضمُّ مادَّة اللغة العربية التي تُدرَّس على مدى سنة كاملة في جميع سنوات الدراسة الأربع، ولم تنشأ آنذاك فكرة التساؤل عن ضرورة "المتطلَّب الجـــامعي" باللغة العربية لأن ضرورتها كانت أمراً مفروغاً منه. وأودُّ هنا التـــذكير بـــأن عبارة "المتطلَّب الجامعي" ترجمةٌ اجتهد في وضعها أحد أعضاء هيئة التـــدريس في الجامعة الأردنية مقابل عبارة University Requirement ومن ثمَّ شاعت في الأردن وفي غيره من البلاد التي أخذت بالنظام الجديد. العبارة الإنكليزيـــة طبيعية في بيئتها الأصلية ولكنها غريبة الوقع، مفتعلةٌ باللغة العربية لأنها نُحِتَتْ نحتاً لتناسب نظاماً تعليميّاً جيء به من الولايات المتّحدة. ولو استَخدم المتـــرجم الأصليُّ مقابلَها عبارةَ "مادة إجبارية" لشاعت هي الأخرى، ولكانت أقرب إلـــى التعبير الطبيعي، هي وكلمة "مادَّة" بدلاً من كلمة "مساق" مقابـــل كلمـــة course التي أدخلها المترجم المذكور. وقد يحسن التذكير هنا بأن هذا النظام ليس هـــو الأشيع في العالم، وأن بعضاً من أرقى الجامعات في أوروبا وغيرها لا تأخذ به. غير أن ما يهمُّني في هذا المجال هو أن اللغة الإنكليزية في الجامعات الأمريكية "مُتَطلَّبٌ جامعي" تُفرض دراستُه على كلِّ freshman، تلك الكلمة التـــي تمكّـــن طلبتُنا الأذكياء من إيجاد مقابلٍ لها لا يقوم على الترجمة الحرفية كما في حالـــة University Requirement، فدعوا الـــ freshman سَنفوراً، وهـــي كلمـــةٌ شاعت تحبُّباً بين طلبة السنة الأولى. وأودُّ أن أضيف هنـــا أن هـــذا المتطلَّـــب الجامعيَّ في الجامعات الأمريكية يدعى عادة Composition وتوضع له كتبٌ ثقيلةُ الوزن، عظيمةُ الفائدة قد يبلغ طول الكتاب الواحد منهـــا ٥٠٠ صـــفحة أو

أكثر. وهي كُتُبٌ لا تُسلَق سلقاً بل توضع بمنهجيّةٍ علميَّةٍ، وتأتي نتيجةً لدراساتٍ تفصيليَّةٍ عن مواطن الضعف لدى الطلبة الجامعيين. وأودّ التذكير هنا أيضاً بأن التعليم السابق للمرحلة الجامعية في أمريكا يستغرق اثنتي عشرةَ سنةً هو الآخر، وأن درجة إتقان الطلبة للغتهم القومية تتفاوت هناك أيضاً تفاوتاً كبيراً بحيث يمكن أن يشكو الوزير المختصّ مما شكا منه وزيرُ التربيةِ والتعليم عندنا. كذلك اسمحوا لي بهذه الملاحظة في السياق الذي أتحدَّث فيه هنا أمامكم، وهو سياقٌ تُثار فيه قضيةُ اللغة العربية من مجمعٍ للُّغة العربية تمكَّن قبل مدَّة وجيزة من استصدار قانون لحماية اللغة العربية، وذلك لشعور القائمين عليه بأن اللغة العربية مهدَّدة ما لم يحمِها القانون. وقد كنتُ تناولتُ في فصلٍ من كتابٍ صدر لي في سنة ٢٠٠٩ حال اللغة العربية، وعنونتُ ذلك الفصل بعنوان "الاستهانة باللغة العربية" بيَّنتُ فيه نماذجَ من تلك الاستهانة التي يشكو منها مجمع اللغة العربية منذ زمن طويل.

لكنْ ماذا يراد من ذلك المتطلّب الإجباري في الجامعات الأمريكية؟ هل تعاني اللغة الإنكليزية هي الأخرى من استهانةٍ مماثلة؟ تقول الشواهد إنها اللغة العالمية الأولى رَغْمَ أن الناطقين بها ليسوا هم الأكثرية، وإن أمريكا لا تعاني من الخوف على مستقبلها ومن التفتيت السياسي والثقافي الذي يتهدّد الأمة العربية. ولذا فإن فرض اللغة الإنكليزية متطلَّباً إجباريّاً على طلبة الجامعات الأمريكية له أسبابٌ أخرى.

هذا ما يَرِدُ في موقعِ جامعة كورنل العريقة، والكلامُ فيه موجّهٌ للطلبة الذين ينوون الالتحاق بالجامعة للحصول على درجة البكالوريوس:

Your first semester at Cornell should include a first-year writing seminar (FWS); what you learn in your writing seminar

will help you in all of your courses, and you will need two FWS's to graduate. First-year writing seminars are 3-credit courses offered by nearly every department in the college.[1]

وهذه ترجمةٌ لهذه الفِقْرة:

"يتضمَّن فصلُك الأوَّل في جامعة كورنِل مادَّةً للكتابة مخصَّصةً للسنة الأولى فيها. وما تتعلَّمه في مادَّة الكتابة هذه سيساعدك في جميع الموادّ التي ستدرسها، وستحتاج إلى دراسة مادَّتين في مهارة الكتابة لكي تتخرَّج. ولكلٍّ من هاتين المادَّتين من موادّ السنة الأولى ثلاث ساعات معتمدة، وهي مادَّة يقدِّمها كلُّ قسم من أقسام الكلِّيَّة".

ويتحدّث الموقع المشابه الذي وضعته جامعة فرجينيا عن مادّتين إجباريَّتين أيضاً تدعى أولاهما First Writing Requirement، أي متطلّبُ الكتابةِ الأوَّل، وتدعى الثانية Second Writing Requirement، أي متطلَّبُ الكتابة الثاني، وهذا ما يرد عنهما:

All students except Echols Scholars [2] must complete a Second Writing Requirement with a grade of C- or better. To meet the Second Writing Requirement, a class must:

1- http://as.cornell.edu/first-year-writing-seminars.

2 -The Echols Scholars Program is predicated upon the Jeffersonian ideal of freedom of inquiry and the development of critical thought. It offers special opportunities to undergraduates in the College of Arts & Sciences whom we believe are among the University's most intellectually curious, broad thinking, and self-motivated students and its most avid learners. As a member of the Echols Scholars Program you will join a select group of students who are offered unusual academic freedom, creative opportunity, community, and attention that will assist in achieving your academic and career goals.
http://echols.as.virginia.edu/front

- Assign at least two writing assignments in English totaling 4,000 words (20 pages) or more independent of quizzes and final examinations.
- Have a student/faculty ratio no greater than 30/1[1]

وهذه ترجمةٌ لهذه الفِقْرة:

"يُطلب من الطلبة جميعاً باستثاء طلبة إيكُلْز متطلَّبٌ ثانٍ في الكتابة، علامة النجاح فيه هي "ج" (أو C) أو أعلى. وفيه يُطلَب بحثان مكتوبان عددُ كلماتهما ٤٠٠٠ كلمة أو ما يعادل عشرين صفحة أو أكثر، فضلاً عن الامتحانات اليوميَّة (quizzes) والامتحان النهائي. ويجب ألا يتجاوز عدد الطلبة في الشعبة الثلاثين لكلِّ مدرِّس".

وفي هذا السياق: هذا ما يَرِدُ في كتابٍ عنوانه *Writing Research Papers*:

"Even in a first-year composition class, your instructor may expect discipline-specific topics such as:

Education: Differentiated Instruction: Options for Classroom Participation.

Political Science: Conservative Republicans and the Religious Right". [2]

1- http://college.as.virginia.edu/requirements/competency.

2- James D. Lester and James D. Lester, Jr. *Writing Research Papers: A Complete Guide* (New York: Longman, 2010), p. 10.

وهذه ترجمةٌ لهذه الفقرة: "قد يطلب منك المدرِّس حتى في مادَّة الكتابة المطلوبة في السنة الأولى، موضوعات تنتمي لحقول علمية بعينها:

التربية: التعليم المتنوِّع: الخيارات المتاحة للمشاركة الصفِّيَّة

العلوم السياسية: الجمهوريون المحافظون والحقوق الدينية."

والكتاب موجَّه في واقع الأمر إلى جميع الطلبة في مرحلتهم الجامعية الأولى، ويصف لهم الخطوات العملية في كيفية البدء من فكرة بسيطة في الذهن إلى أن تكتمل بحثاً أكاديميّاً من النوع الذي قد نراه منشوراً في مجلة أكاديمية.

ويتَّضح من ذلك كلِّه أن التركيز لا يقع على أزمنة الأفعال والترقيم والإملاء وبنية الجملة، بل على المهارة الأعلى التي يحتاجها الطلبة الجامعيّون في أبحاثهم الجادَّة.

وهنا يكمن بيت القصيد من الإشارة إلى هذا المتطلَّب الجامعي في اللغة القومية في الجامعات الأمريكية. نلاحظ قبل كلِّ شيء أن هذه المادّة بمساقيها المتكاملين تركِّز على مهارة الكتابة بالدرجة الأولى، ويُطلب في الثانية منهما أن يكتب الطالب بحثين طولهما مجتمعين أربعة آلاف كلمة أو ما يعادل عشرين صفحة أو يزيد عن ذلك. والبحث –كما هو معروف– يتطلَّب تدريباً خاصّاً في أصوله وإجراءاته وأخلاقيّاته. وهذا البحث لا يقتصر على أمور اللغة أو الأدب بل يشمل جميع فروع المعرفة لأن التعليم الجامعيَّ يقوم على التنقيب في مصادر المعرفة التي اتَّسعت اتِّساعاً هائلاً في العقدين الأخيرين.

لماذا يبذلون كلّ هذا الجهد في تعليم اللغة الإنكليزية وهم أهلُها؟ السبب هو أن الطلبة الجامعيين في الجامعات الأمريكية يُطلب منهم أن يكتبوا بحوثاً في مختلِف الموادّ، وأن تلك البحوث يجب أن تُكتب بلغة إنكليزية سليمة يحاسِبُ

المدرِّسون طلبتَهم على أخطائهم الإملائية، أو النحوية، أو المنطقيـــة فيهـــا، ولا يتركون أمر الأخطاء اللغوية لمدرّسي اللغة الإنكليزية. أما عندنا فـــإن الغالبيـــة العظمى من المدرِّسين خارج اختصاص اللغة العربية لا تهمُّهم الأخطاء اللغوية في أبحاث الطلبة، ويعتبرون الاهتمام بالفاعل والمفعول والناصب والمنصـــوب ترفاً لا يتيح لهم وقتهم الانغماسَ فيه. والأهمُّ حتى من ذلك أن جانباً كبيراً مـــن أبحاث الطلبة لا يُكتب باللغة العربية بل باللغة الإنكليزيـــة لأنهـــم لا يتعلَّمـــون علومهم باللغة القومية، خلافاً لمعظم أُمَم العالم.

ما نوع الكتب التي تُستخدم لتدريس المتطلّب الإجبـــاري فـــي الجامعـــات الأمريكية؟ عندما كنتُ معيداً في قسم اللغة الإنكليزية في الجامعة الأردنية فـــي أواسط الستينات من القرن الماضي كانت الجامعة تستقدم عدداً مـــن الأســـاتذة الأمريكيين ضمن برنامج فُلْبرايْت للتبادل الثقافي للتدريس في القسم، وقد أتـــى أحدهم بكتابٍ كان يستعمله في جامعته لاستعماله في الجامعة الأردنية في مـــادة الكتابة. وعنوان الكتاب هـــو *Writing with a Purpose*، ويقـــع فـــي ٦٠٧ صفحة. وليت المقام يتَّسع لقراءة بعض المواضيع التي يتناولها ابتداءً من أوّليات البحث عن موضوع وانتهاء بالبحث المكتوب ومكوّناته مروراً بأنواع المنطـــق الصحيح والزائف. هذا إلى جانب أقسامٍ في الكتاب تتناول أموراً يحتاج الدارس للرجوع إليها كالقواعد والترقيم. والكتاب لا يطلُب تدريسَ القواعـــد لأن هـــذه القواعد تكون قد أُشبعت تكراراً في السنوات السابقة للالتحـــاق بالجامعـــة، ولا يحتاج الطالب للخوض فيها مرَّة أخرى بالتفصيل. وإذا احتاج للتثبُّت من نقطـــة من النقاط فما عليه إلا الرجوع إلى تلك النقطة بمعونة الفهرس المفصَّل في آخر الكتاب.

وأودُّ أن أشير إلى كتابٍ آخر من هذه الفئة من الكتب عنوانه *Modern Rhetoric* ألَّفه اثنان من أشهر نقّاد الأدب في أمريكا في القرن العشرين ومن أهمِّ من وضعوا الكتب المقرَّرة في الأنواع الأدبية الثلاث الكبرى، أقصد كْلِيانْث بْروكْس وروبرت پن وارِنْ. هذا الكتاب طوله ٨٦٩ صفحة، وهو أيضاً يتناول مهارة الكتابة بالدرجة الأولى مع ما يرافقها من أقسام مرجعية كالقواعد والترقيم. وما يهمُّني فيه هنا هو الكلمة الرئيسة في عنوانه أي Rhetoric. هذه الكلمة يُساء فهمها عندنا وتُفهم في كثير من الأحيان بالمعنى السلبي الذي يحصرها بالمحسّنات البديعية، وبالخطابة الجوفاء التي تسعى لإخراس المستمع بالصوت العالي. ولعلّ هذا ما دعا المرحوم إحسان عبّاس إلى القول –ربما بشيء من المبالغة المقصودة– إن علم البلاغة عندنا يمكن تلخيصُه في أربعين صفحة. لقد تطوَّر علمُ البلاغة في الغرب بحيث تفرَّع عنه علمٌ مستقلٌّ يصل اللسانيات بالفلسفة والأدب اسمُه Discourse Analysis أو تحليل الخطاب، وهو علمٌ جليلُ الفائدة يُنصَح من يأخذون على عاتقهم مَهَمَّة تأليف الكتب المخصَّصة لمادة اللغة العربية متطلَّباً جامعيّاً أن يفيدوا منه.

أنتقل الآن إلى موضوع اللغة العربية متطلّباً جامعيّاً. قابلتُ في التاسع عشر من الشهر الماضي الأخ الدكتور عطا الله الحجايا، مدير شعبة اللغة العربية في مركز اللغات في الجامعة الأردنية الذي أعطاني وصفاً للمادّتين اللتين يتولّى المركزُ تدريسَهما في الجامعة، وهما اللغة العربية الاستدراكية ٩٩ ومادة مهارات الاتِّصال باللغة العربية ١٠٠. والمادّة الأولى تُعطى للطلبة الذين يفشلون في الحصول على درجة النجاح في امتحان الكفاية الذي يتقدَّم له طلبة الجامعة، وهي مادَّة تُسمّى "استدراكية"، وهذه كلمة أحسبها ترجمةً لكلمة

remedial الإنكليزية. ويدلُّ وصف المادَّة على أنها تحاول في فصل دراسيٍّ واحد استدراك ما لم يتعلَّمه الطلبة في اثنتي عشرة سنة.

أما مادَّة مهارات الاتِّصال باللغة العربية فَيَرِدُ في وصفها أنها تسعى "إلى تمكين الطالب من استخدام المعارف الأساسية التي درسها في مساق (٩٩) بهدف التعامل مع أنماط الاتِّصال المتعدِّدة على المستوى التطبيقي..."، وهي في واقع الأمر امتدادٌ للمادّة السابقة. فمادة ٩٩ "تشتمل على مجموعة من النصوص الثقافية والأدبية والعلمية المختارة تشمل بعض القضايا النحوية والصرفية المبسَّطة...وبعض الأخطاء الشائعة في اللغة والنحو والصرف والأساليب"، وتشتمل مادة اللغة العربية ١٠٠ على "عدد من النصوص التراثية والمعاصرة في مجال الأدب والثقافة وتهدف للتعرُّف على أبرز الأساليب اللغوية والبيانية في العربية، مع تذكيره بأبرز الأخطاء التي فشت في اللغة العربية في المستويين التركيبي والبياني".

وقد لفت انتباهي أن وصف المادَّتين باللغة الإنكليزية يختلف إلى حدٍّ ما عنه بالعربية. فوصف مادة ٩٩ ينصُّ في آخره على ما يلي:

"Students are to make ample use of library resources"

بينما لم يرد ذكر المكتبة في الوصف العربي. أما مادَّة اللغة العربية ١٠٠ فيقول وصفها باللغة الإنكليزية إن المادَّة تعتمد على ما تعلَّمه الطلبة في مادَّة ١٠١ التي ألغيت، وهو قولٌ يفتقر إلى المنطق كما هو واضح. ثم يمضي ليقول:

"The course is similar in focus and methodology but is more advanced than 101. In addition to the four language skills spoken of in 101, the course develops students' appreciation and analytical skills.".

وهذه ترجمة لهذه الفِقْرة:

"هذه المادَّة شبيهة في ما تركِّز عليه وفي منهجيَّتها بمادِّة ١٠١، ولكنها أعلى في مستواها. وتسعى هذه المادَّة، إضافة إلى المهارات الأربع التي تحدَّثت عنها مادَّة ١٠١ إلى تطوير قدرات الطلبة في مهارتي التذوُّق والتحليل.".

ومن الواضح أن هذا الوصف يناسب مادة ١٠٢ التي ألغيت هي الأخرى، وأن القائمين على مركز اللغات لم ينتبهوا إلى هذا الخطأ.

لكن ليس هذا هو بيت القصيد. فهذا الخطأ يمكن إصلاحه بسهولة بتكليف شخص يجيد الإنكليزية ليعيد صياغة الوصف العربي لمادّة مهارات الاتِّصال باللغة العربية التي تحمل الرقم ١٠٠ أو ليترجمه ترجمةً. بيت القصيد هو أن هذه المواد، القديمةَ منها والجديدة، تدور في الفلك نفسه: تحاول –تحت مصطلح "المهارات" المستورد من اللغة الإنكليزية– أن تعيد ما ظلَّ مدرِّسو اللغة العربية يكرّرونه في سنوات ما قبل التعليم الجامعي الاثنتي عشرة.

تأمَّلوا ما يحصل من الناحية الفعلية: يتقدّم الطلبة عند التحاقهم بالجامعة الأردنية إلى امتحان كفاية درجةُ النجاح فيه ٥٠٪، ويـنجح كثيرون ويفشل كثيرون. يدرس الفاشلون في ذلك الامتحان مادَّةً يسمّونها استدراكية، درجةُ النجاح فيها هي الأخرى ٥٠٪، ويدرس هؤلاء مادّة إجبارية هي متطلّب جامعي تسمّى مهارات الاتّصال باللغة العربية ورقمها ١٠٠. تطرح الجامعة الأردنية في هذا الفصل الذي نحن فيه سبعاً وستّين شعبة منها، ينجح فيها من ينجح ويعيدها من لا ينجح إلى أن ينجح. غير أن التحصيل الحقيقي فيها يصعب تحديده لأنها تحاول فعل كلِّ شيء، ولا تكاد تحقِّق شيئاً ملموساً. وقد اقترح الأستاذ الدكتور محمود الشرَعَة، عميد كلِّية الآداب حاليّاً، ومدير مركز اللغات سابقاً، أن تَستَحْدِثَ الجامعة امتحاناً آخر يؤدّي النجاحُ فيه إلى الحصول على ٣

ساعات معتمدة في المتطلَّب الجامعي دون الاضطرار للتسجيل في مادة عربي ١٠٠. ومن شأن هذا الاقتراح الوجيه أن يختصر أعداد الشعب المطروحة من مادة مهارات الاتّصال إلى ما يقرب من النصف. وفي هذا ما فيه من توفير في الجهد والمال.

لكن تبقى المشكلة الأساسية في تعليم اللغة العربية دون حلّ. وهذه المشكلة أساسُها في رأيي أن النحو العربي يبقى هاجسَنا الأكبر في التعليم. ولستُ أريد الانتقاص من جهود معلِّمي اللغة العربية، لكنني أرى أنهم أسعدُ ما يكونون عندما يعلِّمون القواعد: قواعدَ النحوِ وقواعدَ الإملاء. تأمّل وصف مادة ٩٩: تشتمل المادَّة على نصوص مختارة "تليها مفردات متنوّعة تشمل القضايا النحوية والصرفية المبسطة، وأخرى تتعلَّق بمهارة الكتابة مثل قضايا في الإملاء والترقيم واستعمال المعجم وبعض الأخطاء الشائعة في اللغة والنحو والصرف والأساليب". وهذا ما يرد في وصف مادة عربي ١٠٠: هنالك أيضاً نصوص مختارة الهدف منها "إبراز الأساليب اللغوية والبيانية" مع التذكير "بأبرز الأخطاء التي فشت في اللغة وفي المستوى التركيبي والصرفي والبياني". وليس واضحاً لي في عبارة "الأساليب اللغوية والبيانية" ما الذي يجري التركيز عليه، وهل يُستفاد فيه من العلم الجديد القديم الذي يُدعى بالأسلوبية أو Stylistics، وهو علمٌ لم يشع بعد في خُطَطِ أقسام اللغة العربية، ولم تُكتب فيه بحوثٌ كثيرة باللغة العربية. لكن ما يلفت النظر عند التفكير في المهارات الأربع التي يقال إن المادّتين اللتين تحدَّثنا عنهما تعالجانها هو أن مهارة الكتابة تتعلَّق بقضايا "في الإملاء والترقيم واستعمال المعجم العربي وبعض الأخطاء الشائعة في اللغة والنحو والصرف والأساليب"، ولا تتعلَّق بمهارة الكتابة بمعني التأليف والبحث. وأظنني لا أبتعد عن الصواب إن قلت إن مصطلح "الإنشاء" الذي نشأنا عليه في

المراحل الدراسية السابقة للمرحلة الجامعية قد انحطَّ معناه من معنى الخَلْق والابتكار إلى معنى الكلام المنمَّق الفارغ الذي يستغني بجمال التعبير عن التناسق الفكري ومعالجة القضايا معالجةً مسؤولةً تؤدّي مقدِّماتها إلى نتائجها. والسبب هو أن "الإنشاء" بمعناه المتداول عند الطلبة هو مَلءُ صفحةٍ أو صفحتين على الأكثر بجُمل تتراكم كيفما اتَّفق لأن الطالب يعلم أن المدرِّس لن يدقّق فيها أكثر من التقاط خطأ إملائي هنا وخطأ نحويّ هناك. أما إن طال الإنشاء وأصبح بحثاً في موضوعٍ محدَّد يتناول معلوماتٍ موثَّقةً أو نقاشاً في قضية ذات أهمية فكرية قد يستغرق الخوض فيها عشرَ صفحات أو عشرين فإن هذا يرتفع بمهارة الكتابة إلى مهارة الكتابة بمعناها الجامعيّ الحقيقي. وهذا يحتاج من المدرِّس الجامعيِّ إلى شيئين أساسيين: (١) أن يعلِّم الطلبة مهارة الإنشاء بمعنى التأليف، أي البحث وإعداد الأفكار والمعلومات وتوثيقها؛ (٢) أن يقرأ ما كتبه الطلبة قراءة مدقِّقة لا تهمل الأخطاء الإملائية والنحوية، ولكنها تركِّز أكثر على الأخطاء الفكرية، على المنطق وقوّة الحجة، والتوثيق، وعلى أسلوب الخطاب. وهذا النوع من القراءة يحتاج إلى وقتٍ لا بدَّ من بذله، وإلى التدقيق في مصادر البحث لأن إغراء السرقة من الإنترنت (أو الشابكة) قويٌّ جدّاً لا يقاومه إلا الجادّون من الطلبة. وهذا يعني أن فلسفة المادَّة التي تُدعى متطلَّباً جامعيّاً إجباريّاً يجب ألا تعود إلى تكرار الكلام الذي سمعه الطلبة عشرات المرّات عن قواعد الهمزة، والفاعل والمفعول به، واختلاف العدد والمعدود، إلى آخر هذه الموضوعات التي جعلت الطلبة ينفرون من اللغة الفصيحة ويلجأون إلى الكتابة بالعامية في كثير من الأحيان.

ولكي لا يقتصر الكلام على ما هو موجود في الجامعة الأردنية فإنني سوف أستشهد بمثالين آخرين من جامعة رسمية وأخرى خاصة. يتكوَّن وصف

مادّة اللغة العربية في جامعة آل البيت من فقرات أهمّها الجدول الزمني، والمهارات، والأهداف. نفهم من الجدول الزمني أن محتواها يتكوَّن من مختارات يغلب عليها الطابع الديني مع عدد قليل من الكتابات الحديثة. خُصِّص لسورة الحجرات مثلاً أسبوعان من الفصل، أما المقامة البغدادية فقد خُصِّص لها ثلاثة أسابيع، وهكذا. أما المهارات التي تسعى المادَّة إلى تعليمها فهي هذه: "المناقشة والاستيعاب، التطبيقات النحوية واللغوية، والتدريبات، والقراءات الإضافية. أما البحث المكتبي فقد يكلِّف المدرِّس طلابه بإعداد وورقة بحثية يخصِّص لها جزءاً من علامة المشاركة. وهناك بعض المهارات الصرفية والبلاغية التي يتوقَّف عندها المدرِّس أثناء شرحه للنصوص المطلوبة". ومن الواضح أن هذا الوصف يجعل المادَّة أقرب إلى ما يدعى comprehension أو الاستيعاب، مع كثير من الوقت المبذول للتطبيقات النحوية والصرفية واللغوية، وهو ما نجده بكلمات أخرى في مادَّة اللغة العربية ١٠٠ في الجامعة الأردنية. أما ما ذكر عن الكتابة فقد ذكر بأسلوب التقليل: "وقد يكلِّف المدرِّس طلابه بإعداد ورقة بحثية يخصِّص لها جزءاً من علامة المشاركة". وعلامة المشاركة هي ٢٠٪، وقد شاع عند الطلبة أن علامة المشاركة يتحكَّم بها المدرِّس، وأن من الممكن الضغط عليه بوسائل يعرفونها للحصول على أكبر قدر منها بحقٍّ أو بغير حقّ، وأنا أرى أنها علامة يجب إلغاؤها واستبدال امتحان رسميٍّ بها. ولا يختلف الإطار العام لمادة اللغة العربية ٢ في جامعة آل البيت عن هذا الذي ذكرته أعلاه. لا بل إن فقرة المهارات منقولة بحذافيرها من مثيلتها في مادة اللغة العربية ١.

أما اللغة العربية ١ في جامعة فيلادلفيا فلا تختلف عما وجدناه في جامعة آل البيت إلا في الطابع الإنشائي للوصف (بالمعنى الشائع لكلمة الإنشاء في

الثقافة العربية الراهنة). وسأكتفي بما يرد في بداية وصف مهارات اللغة العربية ١ للتمثيل على ما أقول: "تفتح هذه المادَّة فضاءات اللغة بمهاراتها الأربعة [كذا]: القراءة، والكتابة، والاستماع، والمحادثة على منافذ التطبيق النصّي؛ لتجعل من اللغة الفصيحة أداة تأصيلية في الميادين كلِّها." وعندما نأتي إلى فقرة عنوانها "نتائج تعلُّم المادَّة" نجد الآتي: "التمكُّن من توظيف مهارات اللغة العربية في فضاءات المعرفة الإنسانية المتنوعة كتابة وقراءة واستماعاً"، وهي أهدافٌ من نوع الإنشاء غير القابل للقياس. ولا يختلف وصف مادة اللغة العربية ٢ عن هذا النوع من الإنشاء. وينكشف معنى الكتابة فيه على نحو واضح عندما نقرأ أن المادَّة "تركِّز على أن يمسك الطالب بأدوات الكتابة السليمة، فيكون قادراً على إنتاج نصٍّ لغويٍّ مجرَّدٍ من الخطأ البنائي والتركيبي والنحوي والإملائي"، وهي المهارات التي كنا نتعلَّمها في المدارس الابتدائية.

يقودني هذا إلى الحديث في أمرين: أوَّلُهما أن دارس اللغة يأخذ منها قدْر حاجته. وثانيهما أن عناية الطالب بلغته تتناسب طرديّاً مع توقُّعات مدرِّسيه. يكاد الأمر الأول، وهو أن دارس اللغة يأخذ منها على قدْر حاجته، أن يكون قانوناً في اللغات وتعليمها. ولأضرب لكم مثلاً من تجربتي الشخصية. يُطلب من طالب الدكتوراة في الولايات المتّحدة أن يتقن اللغة الإنكليزية ولغتين أخريين. ويُسمح للطالب الذي تكون لغته الأصلية غير اللغة الإنكليزية أن يعتبرها إحدى اللغتين، وعليه أن يختار لغةً أخرى. وقد وقع اختياري على اللغة الفرنسية لأنني كنت درستُ بعض مبادئها في بغداد ثم في عمّان. والمطلوب في جامعة إنديانا حيث درستُ أن يتعلّم الطالب اللغة الأجنبية بحيث يتمكّنُ من قراءة النصوص التي قد يحتاجها في دراسته. أما التحدّث بتلك اللغة فليس مطلوباً. وهكذا كان: درستُ الفرنسية على مدى فصلين دراسيين وتعلمتُ أن أقرأها، وكان عنوان الكتاب

المقرّر *French for Reading knowledge*، وعنوانه يدلُّ علـــى محتـــواه. وبعد أن أدّى هذا الجانب من الدراسة المطلوب منه لم أعد لقراءة اللغة الفرنسية إلا إذا وردتْ نصوصٌ فرنسية في كتاب إنكليزي. أما الإنكليزية فلا حدود لمـــا أحتاجُه منها، ولذا فإنني أحيط نفسي عند الدراسة بمختلِف القواميس والمراجع، وأقرأ كلَّ ما يتيح لي وقتي أن أقرأه، ومع ذلك فإنني أشعر أن معرفتي باللغـــة الإنكليزية ناقصة. كذلك فإنني أشعر بحاجة مماثلة لإغناء معرفتي باللغة العربية رغم أنها لغتي القومية، فقد أُصِبْتُ بجُرثومة الشعر بينما كنت طالباً في الابتدائية أقرأه وأطرب له، ثم أكتبه وأمزّق ما لا يعجبني منه إلى أن قـــيَّض الله لـــي أن أنشر ديواناً يتيماً نُشر قبل أكثر من ثلاثين سنة. ثم أخذتُ أتـــرجم، والترجمـــة تحتاج مني أن أغرف من ثروة اللغتين اللتين أجيدهما دون الشعور بالاكتفـــاء، لأن حاجتي لهما حاجةٌ نفسية ومعيشية.

والآن ما هي حاجة الطالب الجامعيّ للغة العربية الفصيحة فـــي جامعـــة كالجامعة الأردنية لا تهتم أقسامُها الإنسانيةُ باللغة الفصيحة (ربما باستثناء كلِّيتي الشريعة والحقوق) قدر اهتمامها بمادّتها العلمية؟ وما هي حاجة طلبة الأقســـام العلمية التي تدرِّس مادَّتها العلمية باللغة الإنكليزية ولا يكتُبُ طلبتُها تقـــاريرهم وأبحاثهم بلغتهم القومية؟ لقد أثرتُ قبل قليل مسألة التعلُّم على قدْر الحاجة. لـــو علم الطلبة أن مدرِّسيهم في أقسام التاريخ وعلم النفس والجغرافيـــة والاقتصـــاد وفي كلِّيات التربية والعلوم الإدارية وغيرها يتوقَّعون منهم أن تكـــون أبحـــاثهم مكتوبة بلغة عربية سليمة لوجدوا أن عليهم أن يعيـــدوا النظـــر فـــي مســـتوى تحصيلهم في اللغة العربية ولأصبحت الكتابة بها متعةً ما بعدها متعـــة. لكـــن المدرِّسين في الأقسام التي ذكرتها لا يحفلون عادة بسلامة اللغة قـــدر احتفـــالهم بسلامة المعلومات، وهذا بسبب الاستهانة التي تثير العجب باللغة العربية.

نأتي عند هذه النقطة –شئنا أم أبينا– إلى النقطة الجوهرية في مسألة اللغة العربية في التعليم الجامعي، وهي أن الجامعة الأردنية اختارت منذ البداية أن يكون تعليمُ العلوم فيها باللغة الإنكليزية، وكان ذلك في رأيي اختياراً غير موفَّق لأنه قام على مقولةٍ فاسدةٍ مؤدّاها أن اللغة العربية –خلافاً للُّغات القومية الأخرى– لا تصلح لتدريس العلوم. والفسادُ في تلك المقولة ينبع من الخلط بين المصطلح العلمي والتراكيب التي تستدعيها القوانين العلمية وبين السّرد الذي تُعْرَضُ فيه هذه المصطلحات وهذه التراكيب. إن من طبيعة اللغات أن يستعير بعضُها من بعضها الآخر. واللغة الإنكليزية خيرُ مثالٍ على ذلك لأنها لغةٌ مليئة بالمفردات من اللغات الأخرى، ولا سيّما اللغة الفرنسية. ولكم أن تتصوَّروا وضع الكلِّيات العلميَّة لو قرَّرت الجامعة الأردنية في سنة ١٩٦٢ أنَّ لغة التدريس في الكلِّيّات كافَّة هي اللغة العربية. لو حدث ذلك لكان لدينا الآن عشراتُ المراجع –إن لم نقل المئات– التي تتناول علوم الفيزياء والطبّ والكيمياء والصيدلة والهندسة، ذلك أن العلماء في هذه الكلِّيّات كانوا سيتعلَّمون من اللغة العربية قدْرَ حاجتهم، وسيبتكرون بجهودهم الفردية والجماعية ما كان سيستقرّ على أنه المصطلح العلمي في مجالات اختصاصهم المختلفة.

أنا أدرك حاجة مدرّسي العلوم لأن يكونوا جزءاً من ذلك الشيء الجذّاب الذي يُدعى Scientific Community أو مجتمع العلماء، وأن يُعرَفوا في مجال تخصُّصهم ويُدعَوْا إلى المؤتمرات العلمية. ولكن هذا الانتماء إلى فئة الأطبّاء أو المهندسين أو الكيميائيين أو ما إلى ذلك لا يتعارض وتدريس العلوم باللغة العربية. لا بل إن تلك الفئات ستستهجن تدريس العلوم بلغةٍ غيرِ اللغة القومية لأن المؤتمرات التي تكون اللغة السائدة فيها هي الإنكليزية تستعمل اللغة الإنكليزية لأنها هي اللغة المشتركة بين العلماء من البلاد المختلفة أو ما يدعى بالـ lingua franca تماماً مثلما كانت اللغة العربية في الماضي هي

الـ lingua franca للعلوم ما بين العلماء العرب والفرس وال٠٠هنود والإسبان. فلينشر العلماء العرب أبحاثهم باللغة الإنكليزية إن شاؤوا إلى أن يحين الوقت الذي تأخذ الدوريات العلمية العربية مكانتها بين الدوريات العلمية التي تحافظ على الدقة والأصالة في البحث العلمي الذي يمكن أن يُترجَم إلى اللغات الأخرى.

ولنكن صادقين مع أنفسنا: إن العناية باللغة العربية حاجةٌ قوميةٌ ودينيةٌ وثقافيةٌ ماسَّة في ضوء مساعي التفتيت التي نراها تفتك بالعالم العربي. هل سيكون حتماً علينا أن نقرأ القرآن الكريم مترجماً إلى اللغة الإنكليزية أو الفرنسية؟ وبأيِّ لغة سيقرأ المسيحيون العرب كتابهم المقدَّس؟ من الواضح أن العناية باللغة العربية لها جانب سياسيٌّ يتجاوز الأهمية الأكاديمية. ولست أدري في واقع الأمر سبب الاستغناء عن المادّة الإجبارية الثانية التي كانت موجودة في الخُطة الدراسية لسنوات طويلة. قد تكون ثمة حاجة لتطويرها، أما إلغاؤها فأراه مثالاً آخر على الاستهانة باللغة العربية، وكأن قائلهم يقول: مادّتان إجباريَّتان باللغة العربية ترفٌ زائدٌ عن الحاجة. فَلْنُلْغِ إحداهما ولنكتفِ بواحدة.

أختم بالقول: نعم للتطوير، أما الإلغاء فلا!